

التطور العمراني والتجاري

لمدينة بجاية في العصر الإسلامي الوسيط

الدكتور علاوة عمارة

جامعة الأمير عبد القادر- قسنطينة

نتج عن إلحاق بلاد المغرب أو بالأحرى "بلاد البربر" بالفلك السياسي والثقافي لدار الإسلام أن تراجع دور المدن الساحلية والموانئ لصالح مدن الداخل، لعدة عوامل منها الابتعاد عن خطر "البحر الرومي" لغياب تقاليد بحرية لدى القبائل العربية المستوطنة في بلاد المغرب. وهناك عامل رئيسي وحاسم يتمثل في استمرار العرب في تطبيق التقسيم الإداري البيزنطي المرتكز أساسا على مجموعة من المدن الداخلية المشكلة لخط دفاعي انطلاقا من ميلّة ووصولاً إلى واحات بسكرة وقسطيلية. وهذا ما أدى إلى ازدهار المدن الداخلية بفعل تنشيط خط ديناميكي فلاح-تجاري يمر بالهضاب العليا ويربط أساسا بين حاضرتين إسلاميتين، القيروان في إفريقية وفاس بالمغرب الأقصى، وكان مصير مختلف المدن الساحلية هو التراجع والانحطاط إلى غاية بداية القرن العاشر الميلادي أين تمكنت مجموعات البحارة والتجار الأندلسيين من ربط علاقات بين المغرب الأوسط والموانئ الأندلسية وما نجم عنه من تأسيس مدن بحرية كتّس الحديثة ووهران وبونة الحديثة¹.

لقد مهدت هذه الأوضاع لميلاد مدن وسيطية لتحل مكان مدن قديمة سبق وأن فقدت مكانتها سنوات عديدة قبل وصول طلائع الجيوش الإسلامية، ومن بين هذه

¹ أنظر مقالنا:

Allaoua Amara, « L'animation de la façade maritime du Maghreb central VIII-XIIe siècle », Revue des Lettres et Sciences Humaines, 6 (2005), p. 5-24.

المدن نجد بجاية التي بنيت في ظروف تختلف عن القرن الذي بنيت فيه المدن البحرية في المغرب الأوسط، ولكن لا يمكن في الوقت نفسه فصلها عن المتغيرات التي حدثت في مغرب القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، والتي تميزت خصوصا بانتقال مركز ثقل الحياة المغربية إلى السواحل، بسبب الأزمات الاجتماعية التي أصابت المناطق الداخلية، والتي كان من نتائجها إعادة بناء مدن قديمة، عرفت تطورات مهمة خلال المرحلة الأخيرة من العصر الوسيط.

من الميناء الفنيقي إلى "صلداي المنسية"

بالرغم من استمرار الموروث القديم في بلاد المغرب خلال حقبتها الإسلامية الوسيطة، فإن الكتابة التاريخية العربية أحدثت قطيعة ابستمولوجية مع الماضي القديم وهو ما نلمسه في النصوص الأدبية التي وصلتنا سواء كانت إخبارية أم وصفية. ويجسد ابن خلدون هذه الوضعية على الأقل بالنسبة لمدينة بجاية قبل إعادة بناء المدينة من طرف الأمير الحمادي الناصر بن علناس : "وفي سنة ستين (1067/460)¹ افتتح جبل بجاية وكان له قبيل من البربر يسمون بهذا الاسم إلا أن الكاف فيهم بلغتهم ليست كافا بل هي بين الجيم والكاف وعلى هذا القبيل من صنهاجة يأتون لهذا العهد أوزاعا في البربر، فلما افتتح هذا الجبل اختط به المدينة وسماها الناصرية وتسمى عند الناس باسم بجاية وبنى بها قصر اللؤلؤة وكان من أعجب قصور الدنيا، ونقل إليها الناس، وأسقط الخراج عن ساكنيها، وانتقل إليها سنة إحدى وستين²".

هذا النص المتأخر بثلاثة قرون عن زمن الحادثة هو الأكثر شمولية حول ظروف بناء بجاية الحمادية بعد الرواية المشرقية التي سنطرق إليها لاحقا. وهو في الوقت نفسه يتحدث عن "اختطاط" مدينة بدون الإشارة إلى ماضيها السابق للفترة

1 التاريخ الأول بالهجري والثاني بالميلادي.

2 ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، مؤسسة جمال للنشر، (ب ت)، ج 6، ص 174.

الحمادية، وهذا ما يدعو إلى النظر في النصوص الغير عربية وإلى الشواهد الأثرية في محاولة لمعرفة المسار التاريخي للموقع قيد الدراسة.

تؤكد لنا النصوص اللاتينية والشواهد الأثرية بصورة قطعية الماضي القديم لمكان بناء مدينة بجاية. فغير بعيد عن الموقع الحالي للمدينة، توجد مغارات إنسان ما قبل التاريخ (علي باشا، رجل فرعون...)، كما تدل النصوص على استعمال المرسى في زمن الفينيقيين¹. وبعد انتصار الجيوش الرومانية على مقاومة يوغرطا، تمكنت روما من ضم منطقة بجاية إلى مقاطعة نوميديا الغربية، وبقرب المرسى الفينيقي تمكن أوكتاف (Octave) من بناء مستعمرة عرفت باسم صلداي (Saldæ) عام 33 قبل الميلاد. وساهمت هذه الوضعية الجديدة في إقامة العديد من المستعمرات² في المقاطعة الجديدة (موريطانيا)³. وشيدت المدينة الرومانية في المنطقة الواقعة بين برج موسى وبريجة كما دلت على ذلك المخلفات الأثرية التي عثر عليها في فترة إعادة بناء المدينة في الفترة الاستعمارية. ويشير الباحث الفرنسي المعاصر كلود لوبلي (Claude Lepelly) إلى أن التسجيلات الحجرية التي عثر عليها ببجاية تسمح بالتعرف على العديد من جوانب تاريخ المدينة في عصرها الروماني منها الاسم الكامل للمستعمرة Colonia Augusta Saldensium Septimana Immunis.

ومما يدل على أهمية مستعمرة صلداي نجد حضورها في الكتابات الإثنوغرافية، فقد أشار إليها بلين (Plinie l'Ancien)، كما دلت إحدى الكتابات الحجرية إلى الوضعية.

1 Stéphane Gsell, Atlas archéologique de l'Algérie, édition spéciale des cartes au 200.000 du service géographique de l'armée, rééd. Osmabrück, 1973, feuille 7, p. 1.
2 شيدت على الأقل ست مستوطنات ساحلية بين 33 و 27 ق م منها أيجيلي، روزازوس وكارتينا.

3 François Decret et Mohamed Fantar, L'Afrique du Nord dans l'Antiquité, histoire et civilisation (des origines au Ve siècle), Paris, Payot, 1981, p. 164 ; Paul-Albert Février, Approches du Maghreb romain, pouvoirs, différences et conflits, Aix-en-Provence, Edisud, 1989, p. 103.

4 Les cités de l'Afrique romaine au Bas-Empire, Paris, Études Augustines, 1981, vol. II, p. 505-507.

الحرجة للمستوطنة نتيجة هجمات القبائل الرافضة لسياسة الرومنة¹. سنوات بعد تأسيس المستوطنة، تم بناء طرق لربطها بالمدن الرومانية في شمال إفريقيا كما قام نونيوس داتوس (Le Vétérans Nonius Datus) بتشييد قنطرة المياه (Aqueduc) والقنوات لنقل مياه توجة إلى صلداي. وساهمت هذه العوامل في تطوير المدينة التي لعبت دورا مهما في مقاطعة موريطانيا بفضل النشاط الاقتصادي لسكانها ودورهم في تنمية المبادلات التجارية مع المناطق الداخلية. وتعرضت المدينة لهجوم القائد المحلي تاكفاريناس، قبل أن يتمكن البروكنسيل دولابيللا (Dollabella) من طرد المجموعات المحلية نحو جبال جرجرة.

لقد تعرضت صلداي كغيرها من مدن بلاد المغرب للسيطرة الوندالية في ظروف غامضة، وتكون المدينة، التي أخذت اسم الغور (الكهف)، قد تعرضت لعملية تخريبية، بالرغم من بقائها عاصمة إقليمية إلى غاية وصول القوات البيزنطية الحاملة للمشروع الجسنتياني بقيادة بليزار (Bélisaire) عام 533م²، وهنا دخلت المدينة في تاريخ مجهول، ربما يعود إلى اختفائها التدريجي قبل وصول طلائع الجيوش العربية. بين الدور المجهول واختراعات كتابات القرن التاسع عشر:

يعتقد الكثير من الدارسين بأن مدينة صلداي التي فقدت اسمها لصالح اسم بجاية قد زال دورها الكامل قبل وصول الطلائع العربية في القرن السابع الميلادي³، في حين ترى بعض الكتابات الغير أكاديمية والتي تعود إلى القرن النصف الثاني من القرن التاسع عشر بأن المدينة فقدت دورها مباشرة بعد الفتح الإسلامي بعد إقدام

1 Ibid, p. 505-507.

2 Ibid, p. 506-507.

3 هو علي سبيل المثال رأي شارل فيرو وإزبيل كمولي ومولود قايد:

Charles Féraud, « Histoire des villes de la province de Constantine ; Bougie », RNSAPC, XIII (1869), p. 85-407 ; Isabelle Comolli, Histoire de la ville de Bougie du VIe siècle avant J. C. au XIIe siècle, Montpellier, Les Français d'ailleurs, 1987, 108 p ; Mouloud Gaid, Histoire de Béjaïa et sa région depuis l'antiquité jusqu'à 1954, rééd. Alger, Edition Mimouni, 1991, 196 p.

القائد عقبة بن نافع على "ديح" كامل سكان المدينة¹، وهي المعلومة التي تتناقض مع المعطيات التاريخية.

تشير النصوص العربية إلى الحضور البشري في منطقة بجاية أو بالأحرى قرب ميناء المدينة خلال الفترة الإسلامية الأولى. فقد أشار القاضي عياض (ت 1148/543) في كتابه الموسوم بترتيب المدارك بأن الإمام سحنون (ت 855/240) كلف سليمان بن عمران، شيخ الحنفية بالقيروان، بقضاء بجاية، باجة والأريس². هذه المعلومة لا يمكن أخذها بدون حذر نظرا لتأخر نص عياض عن الحدث وللبعد الجغرافي بين مدن إفريقية (الأريس- باجة) ومدينة بجاية. هناك مجموعة أخرى من النصوص العربية التي تحدثنا عن استقرار الفرع المغربي من الأسرة العربية الحمودنية بالمنطقة وبالضبط في مكان يعرف بقسطلانة³، الذي يصعب تحديد موقعه بالرغم من ترجيح ارتباطه بالقلعة الرومانية بالقصر، والمعروفة في مصادر العصر الوسيط الثاني بتكلات. ويشير نص بيوغرافي مشرقي إلى لجوء عالم القراءات أبي محمد القضاعي المعروف بمقرن المقرئ (ت 988/378) إلى بجاية قبل انتقاله إلى وهران ثم إلى

1 لقد روجت كتابات تاريخية استعمارية لفكرة قتل عقبة بن نافع لسكان مدينة بجاية، ومن هذه الكتابات أشير إلى ما كتبه إدوارد لابان:

Edouard Lapène, *Vingt-six mois à Bougie, présentation de Camille Lacoste-Dujardin et Nedjma Abdelfettah-Lalmi*, rééd. Paris, Bouchène, 2002, p. 30.

2 القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق أحمد بكير، بيروت، مكتبة الحياة، 1967، ج 1، ص 598.

3 أنظر على سبيل المثال ابن حيان القرطبي، المقتبس في خبر بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمان علي حجي، بيروت، دار الثقافة، 1983، ج 4، ص 33-34. وأنظر خصوصا:

Allaoua Amara, *Pouvoir, économie et société dans le Maghreb hammadide (395-547/1004-1152)*, thèse de doctorat, Université Paris I Panthéon-Sorbonne, 2002, vol. I, p. 163-169 ; Marius Canard, « Une famille de partisans, puis d'adversaires des Fatimides en Afrique du Nord », *Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman* (G. Marçais), Paris, Imprimerie officielle, 1957, vol. II, p. 33-49.

قرطبة قبل منتصف القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي¹. وتشارك هذه النصوص المذكورة في تأخرها زمنيا عن الأحداث المذكورة وفي غموضها عند ذكر بجاية سواء كقبيلة أم منطقة أم مرسى أم قرية صغيرة.

تعد شهادة الرحالة-الجغرافي ابن حوقل النصيبي (ت بعد 977/367) أقدم نص عربي ورد فيه اسم بجاية بالإشارة إلى أنها مرسى، وبدون ذكرها كمكان مأهول² وتأتي بعدها إشارات لبجاية في الفترة الحمادية السابقة لبناء المدينة لتدل على وجود حياة بشرية بالمدينة القديمة. ومن ذلك ما ذكره كل من القاضي عياض وابن الخطيب السلماني حول نفي أمير دانية مجاهد العامري للفقير المالكي أبي عبد الله بن عبيد الله بن الوليد المعيطي إلى بجاية عام 1014/405 أين أصبح معلما للصبيان البربر إلى غاية وفاته عام 1040/432³.

وتأتي شهادة الجغرافي الأندلسي البكري (ت 1094/483) لتعطي لنا فكرة عن بجاية سنوات قليلة قبل بناء المدينة الحمادية. فقد ذكر في كتابه الموسوم بـ"الممالك والممالك" بأن بجاية هي ميناء قلعة بني حماد يقصده التجار الأندلسيين⁴. وهذا ما يدل على وجود بشري بالموقع أو على الأقل المنطقة المحيطة بالمرسى كانت مأهولة نتيجة للدور الذي لعبه الميناء في المبادلات التجارية بين الساحل المغربي والموانئ الأندلسية. وهذه الفكرة تتكرر في نصوص أخرى متأخرة عن البكري. فقد ذكر الموسوعي القاهري شهاب الدين النويري (ت 1333/733)، نقلا عن ابن شداد

1 الذهبي، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة، دار الكتب الحديثة، 1969، ص 273.

2 ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، دار الحياة، (ب ت)، ص 77.

3 القاضي عياض، المصدر السابق، ج 2، ص 345-346، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق للجزء الخاص بالأندلس، ليفي-بروفنسال، تاريخ إسبانيا الإسلامية، بيروت، دار المشرق، 1956، ص 220.

4 البكري، المسالك والممالك، نشر للجزء الخاص ببلاد المغرب،

الصنهاجي بأن بجاية قبل بناء المدينة الحمادية كانت موضع لقبيلة دون ذكرها بالاسم¹. وأشار كذلك صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار إلى أن بجاية كانت فيما سبق مرسى تنتشر بالقرب منه خرائب مدينة قديمة، في حين يرى ياقوت الحموي (ت 1228/626) بأنها كانت مرسى به قرية². وكل هذه الشهادات تدل إذن على وجود حياة بشرية ببجاية قبل بناء الحماديين لمدينتهم الأميرية.

الناصرية: مدينة بجاية الأميرية

عرفت بلاد المغرب في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي تحولات مهمة ساهمت في تشكيلها الهجرة الهلالية والجفاف مما أدى إلى انتقال مركز ثقل الحياة المغربية إلى المناطق الساحلية³. كما عرفت نفس الفترة تخلي الدولة الحمادية عن المؤسسات القبلية لصالح المؤسسات الإدارية المشرقية، وهذا ما شجع الحماديين على الانتقال إلى ساحل البحر الذي أصبح مصدرا للشراء نتيجة رواج التجارة المتوسطية خصوصا مع الأندلس والمدن الإيطالية.

إذا كانت المصادر تختلف في ذكر الأسباب الحقيقية التي كانت وراء بناء الناصر بن علناس لمدينته الأميرية ببجاية، فإن تاريخ البناء هو كذلك محل خلاف. فالرواية المشرقية⁴ المعتمدة أساسا على ابن شداد الصنهاجي (عاش في النصف الثاني من

1 النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق حسين نصار وعبد العزيز الأهواني، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1983، ج 24، ص 224.

2 ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977، ج 1، ص 339.

3 حول هذه التحولات أنظر دراساتنا:

- "الهجرة الهلالية واشكالها انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط: قراءة في نقاش تاريخي" مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، 4 (2004)، ص 31-75.

- «Retour à la problématique du déclin économique du monde musulman médiéval: le cas du Maghreb hammadide (XI-XIIe siècles)», The Maghreb Review, 22-1 (2003), p. 2-26.

4 نجدها خصوصا في كتابات:

ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، دار بيروت، 1983، ج 10، ص 44.

القرن السادس الهجري) تقول ببناء المدينة عام 1064/457، مباشرة بعد هزيمة الناصر بن علناس في موقعة سببة أمام القبائل الهلالية. في حين نجد ابن خلدون (ت 1406/808) المعتمد أساسا على رواية ابن حماد الصنهاجي (المنحدر من البيت الحمادي)، يذكر تاريخ استيلاء الأمير الناصر بن علناس على جبل بجاية وتأسيسه للمدينة عام 1067/460¹. في حين نجد أن الرواية الأندلسية الممثلة بابن عبد المنعم الحميري تشترك مع الرواية المشرقية في تاريخ بناء المدينة، لكنها تنسب الإنجاز تارة إلى الأمير المنصور بن الناصر وتارة إلى الناصر².

نقص المعلومات حول تاريخ المدينة الأميرية الناصرية التي عرفت عند عامة الناس باسم بجاية يحول دون معرفة تاريخ التأسيس بدقة، بالرغم من إمكانية تقديم فرضية عام 1064/457 كبدية لأعمال البناء وتاريخ 1067/460 كزمن نهاية الأشغال³. ونفس الشيء يخص طرق البناء والتنظيم الطبوغرافي للموقع وكذلك أدوات البناء

النويري، المصدر السابق، ج 24، ص 225.

ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 1، ص 339.

الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق إبراهيم الأنصاري، الدوحة، دار احياء التراث، 1988، ج 1، ص 268.

1 ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 174.

2 ابن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، بيروت، مؤسسة ناهر الثقافية، 1980، ص 81.

3 اعتمدت مجمل الدراسات الحديثة عام 1067/460 كتاريخ لتأسيس المدينة، أنظر على سبيل المثال:

Ernest Mercier, Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830), Paris, Ernest Leroux, 1888, vol. II, p. 37 ; Jamil M. Abun-Nasr, A History of Maghreb in the Islamic Period, rééd. Cambridge, Cambridge University Press, 1990, p. 70; Grunebaum (G. E. von), Classical Islam. A History 600-1258, London, George Allen and Un Win LTD, reprinted 1970, p. 173; Ulrich Harmann, Geschichte der arabischen welt, Verlag C. H. Beck Munchen, 1987, p. 288; Abdelmadjid Douib, « L'Ifrîqiya à l'époque ziride », Histoire de la Tunisie, Tunis, Société tunisienne de diffusion, (s.d.), p. 255-320.

عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، صفحة مشرقة من تاريخ الجزائر، بيروت، دار الشروق، 1980، ص 129-131.

التي نعرف منها الآن بعض الشيء بفضل بقاء بعض معالم المدينة الحمادية والتي تبين بوضوح الاستعمال الواسع للأجر ولحجارة صلداي الرومانية.

طبوغرافية المدينة بين إشارات النصوص وقلة المخلفات الأثرية:

لقد روعيت عدة عوامل في اختيار موقع مدينة الناصرية وهي متشابهة جدا مقارنة بالمدن الصنهاجية التي بنيت أو أعيد بنائها على أنقاض مدن قديمة. فتموضع قلعة بني حماد ومدينة جزائر بني مزغنة تكرر في بجاية من حيث بناء المدينة عند منحدر سفح الجبل، لسهولة الدفاع عنها باستدارة السور حتى أعلى قمة الجبل. فمدينة بجاية تم تشييدها عند منحدر جبل أمسيون (قوراية حاليا) المطل على البحر مباشرة مما أعطى للمدينة حصانة طبيعية عالية، ما عدا الجهة الشرقية المطلة على منطقة شبه سهلية.

لفتت حصانة المدينة انتباه الرحالة، ومن ذلك ما كتبه صاحب الاستبصار: "مدينة بجاية، وهي مدينة عظيمة على ضفة البحر، والبحر يضرب في سورها. وهي محدثة من بناء ملوك صنهاجة... وهي مدينة عظيمة ما بين جبال شامخة قد أحاطت بها، والبحر منها في ثلاث جهات في الشرق والغرب والجنوب. ولها طريق إلى جهة الغرب يسمى بالمضيق على ضفة النهر المسمى بالوادي الكبير، وطريق القبلية إلى قلعة حماد على عقاب وأوعار، وكذلك طريقها إلى الشرق..."¹ "ونفس الشهادة نجدها عند الرحالة العبدري عام 1289/688، الذي أظن في وصفه حصانة المدينة وامتداد أسوارها بين الجبل والبحر".²

وسمحت خرائط سور المدينة في بداية القرن العشرين والأجزاء المتبقية منه حاليا وكذلك الصور الفضائية من رسم سور المدينة الممتد على شكل مثلث قاعدته

1 الاستبصار، المصدر السابق، ص 128-129.

2 العبدري، الرحلة، تحقيق محمد الفاسي، فاس، جامعة محمد الخامس، 1968، ص 26.

الواجهة البحرية وقمته رأس الجبل، على ارتفاع 660 م عن سطح البحر¹. ويتوسط باب البحر الواجهة البحرية في توزعت أبواب المدينة في الجهات الثلاث: باب المرسى إلى الغرب من باب البحر، باب أمسيون إلى الأعلى من رأس بريجة. في الجهة المقابلة كانت توجد باب البنود الذي يكون ربما مكان باب فوكة الحالي قرب مقبرة ابن علي رسمية، إلى الشمال منه باب اللوز، باب تاطونت بالقرب منه، باب الدباغين بالقرب من أماكن الدباغة على الوادي الكبير، وهناك أبواب أخرى يصعب تحديد موقعها وهي باب إيلان، باب باطنة والباب الجديد. ومعظم هذه الأبواب يرجع إلى الفترتين الموحدية والحفصية². ولتشديد حصانة المدينة، عهد الأمراء الحماديون إلى بناء نقاط دفاعية متقدمة عرفت بقبة الحارس في أعالي الجبل وفي خليج سيدي يحي³، شبيهة بالدفاعات البيزنطية المعروفة باسم Castellum التي نجدها خصوصا في المدن المنفتحة كطبنة وتمقاد⁴. وأحيطت المدينة بمتنزهين هما البديع في غرب المدينة والرفيع في شرقها، وقد أعيد إصلاحهما من طرف حاكم المدينة الحفصي في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي⁵.

1 De Beylié, La Kalaa des Beni-Hammad, une capitale berbère de l'Afrique du Nord au XIe siècle, Paris, Ernest Leroux, 1909, p. 104-105.

2 حول أبواب المدينة، يمكن الرجوع إلى إشارات كل من الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1979، ص 27، 44، 51، 204. ابن الحاج النميري، فيض العباب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تحقيق محمد بن شقرون، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990، ص 267-268.

3 ابن الحاج النميري، المصدر نفسه، ص 296.

4 حول هذا النمط من الدفاعات أنظر:

Charles Diehl, L'Afrique byzantine, histoire de la domination byzantine en Afrique (533-709), Paris, Ernest Leroux, 1896, p. 196.

5 أبو اسحاق البلوي، تاج المفروق في تحلية علماء المشرق، تحقيق عمر بو عافيف ضمن رسالة دكتوراه باللغة الفرنسية:

Amor Bouafif, Taj al-Mafriq, Thèse de doctorat 3eme cycle, Université Paris III-La Sorbonne Nouvelle, 1975-1976, p. 9-10.

لا تسمح لنا المعطيات المصدريّة برسم مخطط دقيق لتنظيم المدينة ما عدا توزيع بعض الأبواب السابقة الذكر وبعض المنشآت الأميرية الحمادية خصوصاً في منظر اللؤلؤة وقصبة المدينة في عصرها الوسيط، المختلفة تماماً عن القصبة الإسبانية الحالية.

تعتبر منظر اللؤلؤة بمثابة الحي الأميري داخل بجاية الحمادية، وكانت محاطة بسور يفصلها عن بقية أحياء المدينة الشعبية. وقد شيد قصورها الأمير الناصر بن علناس عند بناء المدينة ثم قام ابنه المنصور بتوسيعها، وقد قاومت هذه القصور العوامل الطبيعية والبشرية قرابة الخمسة قرون قبل تهديمها النهائي على يد الأسبان ثم الأتراك في القرن السادس عشر الميلادي¹. وقد ركزت كتب الجغرافية الوصفية على الهندسة المعمارية لهذه القصور المطلة على البحر ومن ذلك ما كتبه صاحب الاستبصار: "وفي بجاية موضع يعرف باللؤلؤة وهو أنف من الجبل قد خرج في البحر، متصل بالمدينة، فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة لم ير الراؤون أحسن منها بناء، ولا أنزه موضعاً، فيها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد والأبواب المخرمة المحنية، والمجالس المقرصة المبنية حيطانها بالرخام الأبيض من أعلاها إلى أسفلها، قد نقش أحسن نقش وأنزلت بالذهب واللازورد، قد كتبت فيها الكتابات المحسنة، وصورت فيها الصور الحسنة، فجاءت من أحسن القصور وأتمها منزهاً وجمالاً²".

وأنظر كذلك:

Georges Marçais, « Bidjāya », Encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition, Leyde, Brill, vol. I, p. 1241.

1 أبو الحسن علي بن الحسن التمقروطي، اللوحة البدرية في السفارة التركية، نشر ضمن كتاب الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1981، ص 49.

2 الاستبصار، المصدر السابق، ص 130.

ويشير نص ابن الحاج النميري¹ الذي يعود إلى القرن الثامن الهجري/الرابع

عشر الميلادي إلى وجود برج عال للمراقبة بمنظرة اللؤلؤة، مما يمكننا من ملاحظة استمرار نموذج المنار عند الحماديين ببجاية بعد أن شيدوه بالقلعة.

يعد قصر أميمون كذلك من القصور الأميرية ببجاية وقد شيده الأمير المنصور ليصبح مقرا إداريا لحكمه بداية من عام 1091/484، بعدما ترك قلعة بني حماد التي احتوت البلاط الحمادي لمدة أربعة وثمانين سنة. بالرغم من غياب معطيات أثرية قطعية، فإنه بالإمكان تحديد مكان تواجد هذا القصر بحصن موسى الحالي، ضمن مجموعة من المنشآت الأميرية داخل قصبة بجاية في الفترة الوسيطة. ويجاوره في نفس القصبة قصر الملك، الذي وصفه الشاعر ابن حمديس الصقلي (ت 1133/527) في قصيدتين².

لا يمكن للقصبة الأسبانية أن تحل محل القصبة الحمادية التي كانت مبنية في أعالي المدينة لمراقبة الحركة داخل الأحياء الحرفية والسكنية³، وهي التي أشار إليها صاحب الحلل الموشية عند حديثه لقرار آخر الأمراء الحماديين، يحي بن العزيز، إلى مرسى المدينة ومنه إلى بونة⁴.

1 المصدر السابق، ص 267.

2 الديوان، تحقيق احسان عباس، بيروت، دار صادر، 1960، ص 497-498، 545-549.

3 يشترك سلفطور دو هابسبورغ في هذا الترجيح في الكتاب الذي ألفه بالألماني وترجم إلى الفرنسية:

Louis Salvator de Habsbourg, Bougie : la perle de l'Afrique du Nord, traduit de l'allemand par V. Jambert, Paris, l'Harmattan, 1999, p. 57.

في حين يرجح بروشنفيك فرضية بناء القصبة من طرف الموحديين في مكان مرتفع:

Robert Brunschvig, , La Berbérie orientale sous les Hafsides, des origines à la fin du XVe siècle, rééd. Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient Adrien-Maisonneuve, 1982, vol. I, p. 360.

4 الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، تحقيق علوش، الرباط، 1936، ص 124.

وقد أشار كل من ابن خلدون¹ وابن الحاج النميري² إلى وجود قصور ومسجد داخلها، وهذه التركيبة تختلف تماما عن القلعة الأسبانية التي عرفت شعبيا باسم القسبة على اعتبار أنها مركز سلطة المدينة. وبهذه التركيبة فإن قسبة بجاية تشابه بشكل كبير "قسبة قلعة بني حماد"، التي تتشكل من مجموعة من القصور في أعالي المدينة عند سفح الجبل. إنه من الخطأ تاريخيا وأثرنا نسبة مسجد القسبة الأسبانية ببجاية إلى زمن ابن خلدون، فادوات البناء والزخرفة لا يمكن أن تكون سابقة للوجود التركي بالجزائر.

لقد استمرت القسبة الحمادية كمقر لحاكم المدينة في زمن الموحدين والحفصيين كما تدل على ذلك جل النصوص الإخبارية المتعلقة ببجاية، فقد أشار ابن خلدون إلى إقامة الوالي الموحي أبي إسحاق بها، وكذلك الأمير الحفصي أبي بكر، وحتى ابن خلدون نفسه عندما شغل منصب حاجب وخطيب المدينة في زمن أبي عبد الله الحفصي. وأشار كذلك الغبريني³ ومن بعده ابن قنفذ القسنطيني⁴ (ت 1406/809) إلى القسبة مما يدل على استمراريتها في زمن الحفصيين، ليتم تهديمها عام 1524/931 من طرف الأسبان كما أشار إلى ذلك مؤرخ بجاية في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، أبي إبراهيم المريني في كتابه "عنوان الأخبار فيما مر على بجاية"⁵.

1 التعريف بابن خلدون، ترجمه إلى الفرنسية عبد السلام شدادي:

Le voyage d'Occident et d'Orient, Paris, Sindbad, 1980, p. 98-99.

2 المصدر السابق، ص 268.

3 المصدر السابق، ص 282.

4 الوفيات، تحقيق عادل نويهض، بيروت، مؤسسة نويهض الثقافية، 1982، ص 345.

5 للأسف لا نملك من نص المريني إلا ترجمة شارل فيرو في المجلة الإفريقية:

Ch. Féraud, La conquête de Bougie par les Espagnols d'après un manuscrit arabe dans Revue Africaine, 12 (1868), p. 255, 347.

ولم يكتف الولاء الذين حكموا المدينة بالقصور الموروثة عن الحماديين بل قاموا ببناء قصور أخرى أقل أهمية من سابقتها كقصر الكوكب بالقصبة أو قصر الرفيع بالمتنزه الحامل لنفس الاسم على وادي الصومام¹.

بجاية: من قطب المغرب الأوسط إلى بوجية (Bugia) التجار المسيحيين بعد أن شكلت قلعة بني حماد مركز تجاري هام لبلاد المغرب الأوسط خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، بدأت تدريجيا تفقد مكانتها السياسية والاقتصادية لصالح بجاية الناصرية²، وقد عبر عن هذا التحول الجغرافي الصقلي الشريف الإدريسي في كتابه الموسوم بـ "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" المدون عام 1153/548: "ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد والسفن إليها مقلعة وبها القوافل منحة والأتمة إليها برا وبحرا مجلوبة، والبضائع بها نافقة، وأهلها مياسير تجار، وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة ولها بواد ومزارع والحنطة والشعير... وأما مدينة بجاية في ذاتها فأنها عمرت بخراب القلعة"³.

يبين هذا النص المكانة التجارية المركزية لمدينة بجاية في منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي والتي اندمجت تدريجيا في فضاء إسلامي ومتوسطي ومحلي عبر عنه الإدريسي بقوله: "ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد وذلك أن من بجاية إلى اكجان يوم وبعض يوم، ومن بجاية إلى بلزمة مرحلتان

1 ابن الشماع، الأدلة البينة النورانية في مبادئ الدولة الحفصية، قطعة غير منشورة، المكتبة الوطنية بباريس، رقم 5143، و 18.

2 عن تراجع دور قلعة بني حماد وزوال المدينة، راجع دراستنا:

« La Qal'a des Banī Hammād : l'histoire d'un déclin », Archéologie islamique, 11 (2001), p. 91-110.

3 الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب، 1989، ج 1، ص 260-261.

وبعض، ومن بجاية إلى سطيف يومان، وبين بجاية وباغاية ثمانية أيام، وبين بجاية وقلعة بشر خمسة أيام وهي من عمالة بسكرة، وبين بجاية وتيفاش ست مراحل، وبين بجاية وقالمة ثماني مراحل، وبين بجاية وتبسة ستة أيام، وبين دور مدين وبجاية إحدى عشر مرحلة، وبين بجاية والقصرين ستة أيام وبين بجاية وطبنة سبع مراحل¹.

وبين نص الادريسي تشكل فضاء اقتصادي وربما سياسي كذلك لبجاية الحمادية والذي حصر في الجهة الشرقية، بمعنى أراضي إفريقية كما عرفها البيزنطيون والأغالبة، ويرج هذا بالأساس إلى دور جبال جرجرة في عزل بجاية عن المدن الغربية وإلى الاضطرابات التي عرفها غرب المغرب الأوسط نتيجة الحروب بين الحماديين من جهة والمرابطين وبني ومانو من جهة ثانية.

وقد ساعدت عدة عوامل هذا البروز السريع لبجاية منها على الخصوص دور السلطة السياسية الحمادية في إرساء مؤسسات صناعية وتجارية خصوصا درا صناعة السفن "وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرايبي لأن الخشب في جبالها وأوديتها كثير موجود ويجلب إليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران وبها معادن الحديد الطيب موجودة..."² "والعامل الثاني تمثل في بناء أسواق خصوصا القيسارية بجانب دار الصناعة، سوق باب البحر، سوق الصوافين، سوق حومة باب المذبح وسوق البزازين³. وهو ما شجع التجار على المجيء إلى

1 المصدر نفسه، ج 1، ص 260.

2 نفسه، ص 260.

3 الغبريني، المصدر السابق، ص 45، 175، 178، 195، 250. فتوى للغبريني في "المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى علماء افريقية والمغرب، تحقيق محمد حجي وآخرون، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981-1983، ج 4، ص 72-73.

المدينة والمكوث بالفنادق التي انتشرت بالمدينة¹، خصوصا في المرحلة الموحدية عندما بنيت فنادق للتجار المسيحيين: للجنوبيين عام 1200 وللمرسليين عام 1220. وكان لتأسيس دار السكة من طرف الأمير الحمادي المنصور دور كبير في تسهيل حركة المبادلات التجارية بعد سيطرة الدينار المرابطي والدينار الفاطمي على التجارة المتوسطية. وقد تواصلت عملية سك النقود بالمدينة خلال العهدين الموحي والحفصي.

وتشير وثائق الجنيزة بالقاهرة إلى مكانة بجاية في التجارة المتوسطية الإسلامية خصوصا بسبب وقوعها على الطريق البحري الرئيسي الرابط بين المرية والإسكندرية، والذي لعب فيه التجار المصريين والبجائيين وحتى اليهود دورا معتبرا². وتبرهن الوثائق اللاتينية من جانب آخر على الدور الكبير الذي لعبه ميناء بجاية في التجارة المتوسطية مع المدن الأوروبية: جنوة، بيزا، أمالفي، نابولي، مرسيليا، بالرمو وبرشلونة. وقد خلص الباحث الفرنسي دمنيك فاليريون (Dominique Valérian) إلى دراسة الاتفاقيات التجارية التي أبرمت بين جنوة وبيزا من جهة والخلافة الموحدية من جهة ثانية وتأثيرها في ازدهار تجارة بجاية مع العالم المسيحي التي أصبحت سوقا أساسيا للبضائع الأوروبية إلى جانب تونس وسبتة. فقد

1 أشار ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أندري فور، الرباط، 1958، ص 448-449، إلى فندق ببجاية في معرض حديثه عن أعمال الصوفي البجائي المشهور أبي علي الزواوي.

2 يعتبر جواتين من بين أهم من استغل وثائق الجنيزة في دراسة التاريخ الاقتصادي للعالم المتوسطي والإسلامي على الخصوص من خلال عدد من الدراسات والوثائق المنشورة ومن ذلك:

Shelomo. D. Goitein, Letters of Medieval Jewish Traders, Princeton, Princeton University Press, 1973 ; Id, A Mediterranean Society. Vol I, Economic Foundations, California, University of California Press, 1967 ; « Judeo-Arabic Letters from Spain (Early Twelfth) », Orientalia Hispanica, Leyde, E. J. Brill, 1987, vol. I, p. 331-350 ; « La Tunisie du XIe siècle à la lumière des documents de la Geniza du Caire », Études d'orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal, Paris, 1962, vol. II, p. 559-579 ; Id, «The Caire Geniza as a Source for the History of Muslim Civilisation», Studia Islamica, III (1955), p. 76-91.

سجلت الوثائق اللاتينية تصدير التجار المسيحيين للبحانيين الأقمشة والحبوب وتوابل الشرق والخشب وبعض المعادن، في حين احتلت المنتوجات الحيوانية كالجلود والصوف والعبيد والشمع صدارة المنتوجات المستوردة من طرف التجار المسيحيين. كما يعتبر البحر كذلك مصدرا من مصادر الدخل من خلال ممارسة القرصنة المعروفة في الأدبيات العربية المعاصرة للفترة المدروسة بـ "الغزو البحري" والنصوص الأوروبية بـ "الحرب المقدسة". وتعرض فاليريون إلى تطور القرصنة بميناء بجاية في القرن الرابع عشر الميلادي بسبب تراجع التجارة المتوسطية مما أدى بالتجار إلى اللجوء لطرق أخرى للحصول على مداخيل.

ودرس فاليريون بعمق الوسط التجاري البجائي وبين ارتباطه بالأوضاع المتوسطية بشكل عام. وأول ما لفت نظرة الباحث هو الحضور الهزيل للتجار البجائيين خارج دار الإسلام. وشكل كل من الأندلسيين واليهود والعناصر المقربة من السلطة السياسية أهم الفئات المشكلة لجماعات التجار البجائيين. في حين سيطر تجار المدن الإيطالية (بيزا، جنوة، البندقية) ومرسيليا والمدن الإسبانية على التجارة البحرية لمدينة بجاية. وتمكن الباحث من وضع تحقيق لتطور وتراجع تجارة هذه المدينة من تأسيسها وإلى غاية بداية القرن السادس عشر الميلادي: فترة ذهبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، أزمة في القرن الرابع عشر وعودة النشاط التجاري في القرن الخامس عشر الميلادي¹.

وهذه النتائج تكمل ما توصلت إليها دراسة الباحث التونسي صالح بعيزق في أطروحة دكتوراه تحت عنوان "بجاية في العهد الحفصي، دراسة اقتصادية

1 Dominique Valérian, Bougie, port maghrébin, 1067-1510, Rome, École française de Rome, 2006, 795 p.

اجتماعية¹ التي بين فيها ارتباط بجاية بالفضاء الحفصي والمتوسطي ومدى مساهمتها في تنشيط التجارة المتوسطة.

الخاتمة

في ختام هذا العرض السريع يمكن القول بأن المسار التاريخي الذي عرفته بجاية كان مغايرا لمسار المدن الداخلية، لأنها خضعت للتأثيرات المتوسطة أكثر من الداخلية. ففي وقت كانت مدن الهضاب العليا تشهد تراجعاً عمرانياً واقتصادياً كبيراً، نجد بجاية تشكل قطباً له امتداده الداخلي من خلال تشكل فضاء بشري واقتصادي مرتبط بالمركز، وهذا ما أدى إلى ازدهاره بفعل علاقاته الخارجية وتحكمه في المبادلات التجارية.

إن دراسة التاريخ العمراني لبجاية يسمح لنا من إبراز العلاقة بين التطور العمراني واردة السلطة السياسية في إنشاء تمركز عمراني متعدد النشاطات مما يتيح لها تشكيل مجتمع حضري يقترب في تصوراتهِ من مجتمع البلاط، وهذا المجتمع الجديد المتعدد الإثنيات هو المساهم تدريجياً في نهاية التماسك القبلي للأسرة الحاكمة، أو بتعبير آخر العصبية القبلية، مما يجعله غير قادر عسكرياً على مواجهة المجتمعات القبلية الريفية الطامحة لتأسيس "ملك" جديد.

1 جامعة تونس الأولى، 1995، 549 ص، ونشرت بجامعة تونس الأولى عام 2006.